369 - ـ فصل : من أذل نفسه خسر الدنيا و الآخرة .

لا عيش في الدنيا إلا للقنوع بالسير فإنه كلما زاد الحرص على فضول زاد الهم و تشتت القلب و استعبد العبد .

و أما القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه و لا يبالي بمن هو مثل إذ عنده ما عنده .

و إن أقواما لم يقنعوا و طلبوا لذيذ العيش فأزروا بدينهم و ذلوا لغيرهم .

و خصوصا أرباب العلم فإنهم ترددوا إلى الأمراء فإستعبدوهم و رأوا المنكرات فلم يقدروا على إنكارها و ربما مدحوا الظالم اتقاء لشره .

فالذي نالهم من الذل وقلة الدين أضعاف ما نالوا من الدنيا .

و من أقبح الناس حالا من تعرض للقضاء و الشهادة و لقد كانتا مرتبتين حسنتين .

و كان عبد الحميد القاضي لا يحابي فبعث إلى المعتضد و قال له : [قد إستأجرت وقوفا فأد أجرتها ففعل] .

و قال له المعتضد : [قد مات فلان و لنا عليه مال فقال : أنت تذكر لما وليتني قلت لي : قد أخرجت هذا الأمر من عنقي و وضعته في عنفك و لا أقبل هذا الذي تقول إلا بشاهدين] .

و كذلك كان الشهود دخل جماعة على بعض الخلفاء فقال الخادم : [إشهدوا على مولانا بكذا فشهدوا فتقدم المجزوعي إلى الستر فقال : يا أمير المؤمنين أشهد عليك بما في هذا الكتاب فقال : أشهد] .

قال : إنه يكتفي في ذلك لا أشهد حتى تقول نعم قال : نعم .

فأما في زماننا فتغيرت تلك القواعد من الكل خصوصا من يتقرب إليه بالمال ليستشهد فتراه يسحب ليشهد على ما لا يرى .

قال لي أبو المعالي بن شافع : [كنت أحمل إلى بعض أهل السواد و هو محبوس و أشهد عليه و أنا أستغفر ا من ذلك] .

و ليس للشهود جراية فيحملون ذلك لجلها و إنما الذي يحصل جر الطيلسان و طرق الباب و قول المعرف : حرس ا نعمتك شهادة .

و لما قيل لإبراهيم النخعي : [تكون قاضيا ليس قميصا أحمر و جلس في السوق فقالوا كان هذا لا يصلح] .

و دخل بعض الكبار على الرشيد ـ و قد أحضره ليوليه القضاء ـ فسلم و قال له : [كيف أنت و كيف الصبيان ؟] .

فقيل : هذا مجنون فيا جنون هو العقل .

و ما أظن الإيمان بالآخرة إلا متزلزلا في أكثر القلوب .

نسأله ا سبحانه و سلامة الدين فإنه قادر